

بسم الله الرحمن الرحيم
 الفصل الأول
 ظهور عماد الدين زنكي على مسرح الأحداث
 المبحث الأول
 أصول الأسرة الزنكية

ينتمي عماد الدين بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان إلى قبائل (السبايو) التركمانية وقد حظي والده أبو سعيد آق سنقر الملقب بقسيم الدولة، والمعروف بالحاجب^(١)، باهتمام المؤرخين بسبب الدور الذي لعبه على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية للدولة السلجوقية^(٢)، وكان آق سنقر من أصحاب السلطان ملكشاه الأول وأترابه^(٣)، وقيل: إنه كان لصيقه، ومن أخصّ أصدقائه^(٤)، فقد نشأ الرجلان وترعرعا معاً، ولما تسلم ملكشاه الحكم عينه حاجباً له، وحظي عنده فكان من المقرّبين وأنس إليه، ووثق به حتى أفضى إليه بأسراره، واعتمد عليه في مهماته، فكان أبرز قادته^(٥).

أولاً: مكانة آق سنقر عند السلطان ملكشاه:

من أقوى الدلائل على الخطوة التي حازها آق سنقر عند السلطان، منحه لقب (قسيم الدولة)، وهذا يعني الشريك، وكانت الألقاب في تلك الأونة مصونة لا تُعطى إلا لمستحقّيها^(٦)، ويبدو أنه قاسم ملكشاه شؤون الحكم والإدارة، بالإضافة إلى ذلك، فإن آق سنقر كان يقف إلى يمين سدة السلطنة ولا يتقدمه أحد، وصار ذلك أيضاً لعقبه من بعده^(٧).

والراجح أن منح آق سنقر هذا اللقب يعود إلى ثلاثة أسباب:

- ١ - محبة السلطان ملكشاه له ودعمه إياه.
- ٢ - انتسابه إلى قبيلة تركية لها مكانتها وأهميتها بين القبائل السلجوقية الحاكمة، وأنه كان ذا مكانة رفيعة فيها.
- ٣ - أنه أدى خدمات جليلة لملكشاه، استحققت منحه هذا اللقب^(٨).

(١) وفيات الأعيان (١/٢١٧، ٢١٨)، عماد الدين زنكي د. عماد الدين.

(٢) عماد الدين زنكي، د. عماد الدين خليل ص ٣١.

(٣) التاريخ الباهر في الدول الأتابكية بالموصل ص ٤.

(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، د. محمد طقوش.

(٥) التاريخ الباهر ص ٤.

(٦) المصدر نفسه نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٤٣.

(٧) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٤٣.

(٨) إمارة حلب، محمد ضامن ص ١٣٦.

واشترك آق سنقر إلى جانب السلاجقة في معارك عديدة، فقد سيره ملكشاه عام ٤٧٧ هـ مع عميد الدولة بن فخر الدولة في محاولة للاستيلاء على الموصل وطرد العقيليين منها، وقد تمكنا من إنجاز هذه المهمة^(١)، وبعد مرور سنتين اشترك مع السلطان ملكشاه في انتزاع حلب من نواب العقيليين فولاه إياها تقديراً لجهوده^(٢) وقد تسلم آق سنقر منصبه في حلب وأعمالها، كمنيع واللاذقية وكفر طاب^(٣) واستطاع أن يوسع نطاق ولايته بالاستيلاء على حمص عام ٤٨٣ هـ، وحصن أقاليمه عام ٤٨٤ هـ. كما فرض طاعته على صاحب شيرز عام ٤٨١ هـ، وفي عام ٤٨٥ هـ اشترك مع ملكشاه في مهاجمة العقيليين والانتصار عليهم قرب الموصل وظلت علاقة آق سنقر بالسلطان ملكشاه قائمة على الطاعة والتفاهم المشترك، ولم يسع يوماً إلى الخروج على أوامره ورفض السلطان بدوره الاستجابة لشكاوى معارضي آق سنقر أو إقرار مساعيهم للتخلص منه^(٤).

ثانياً: سياسة آق سنقر في حلب الداخلية:

بدأت مع تولي آق سنقر الحكم في حلب، مرحلة جديدة من حكم السلاجقة المباشر لهذه المدينة، وانتهى حكم القبائل العربية لهذه الإمارة وأزيحت عن مسرح الأحداث في شمالي بلاد الشام، ويُعدُّ سُنُقُرُ أول حاكم سلجوقي لإمارة حلب بعدما كانت سنوات طويلة من التمزق والحروب بين القبائل العربية فيما بينها، ثم بينها وبين التركمان القادمين من الشرق، ودام حكمه ثمان سنوات تقريباً كانت مرحلة هامة في تاريخ الإمارة والمنطقة بفعل أنها أحدثت تغييرات أساسية شملت كل جوانب الحياة^(٥)، لقد تسلم آق سنقر الحكم في ظل حالة من الفوضى التامة بفعل عاملين داخلي وخارجي، يتمثل الأول بصراع الحكام، وتديبرهم المؤامرات، واستعانتهم بالقوى الكبرى في المنطقة كالخليفة العباسية في بغداد، والدولة الفاطمية في مصر بالإضافة إلى الدولة السلجوقية الجديدة الطامعة في التوسع في المنطقة هي:

١ - قوة القبائل العربية البدوية وبخاصة الكلابيين العقيليين والمرداسيين لاستعادة نفوذها المسلوب.

٢ - قوة التركمان المدمرة التي كانت تغير على المنطقة.

٣ - قوة الدولة البيزنطية التي كانت تستغل الصراعات الداخلية لاستعادة نفوذها المفقود.

شهدت حلب نتيجة ذلك أوضاعاً من عدم الاستقرار السياسي انعكس سلباً على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية فيها في خضم هذه الصراعات تغافل الحكام عن الاهتمام بالشؤون الداخلية للسكان، كما أهملوا تطوير الحياة الاقتصادية، مما أدى إلى تراجع واردات البلاد وعمدوا

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (١٩/١ إلى ٢١، ٢٢).

(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زكي ص ٣٢.

(٣) الباهر ص ٨ عماد الدين زكي ص ٣٢.

(٤) عماد الدين زكي ص ٣٢، ٣٣.

(٥) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٠٩، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٤٦.

إلى استنزاف السكان بفرض ضرائب أخرى وإتاوات باهظة، كلما أعوزهم المال، حتى أثقلوا كاهلهم، فتدمروا من سوء الأوضاع، وكثر انتشار اللصوص وقطاع الطرق، مما أدى إلى انعدام الأمن على الطرق، فتعطلت الحركة التجارية، وقُلَّت السلع في الأسواق، وتراجعت موارد الزراعة لعدم تمكُّن الفلاحين من القيام بالحرث والزرع وجني المحصول فبرزت في هذه الظروف الصعبة منظمة الأحداث التي أخذت على عاتقها رعاية مصالح أفرادها ومقاومة التعديات الخارجية^(١) وضع آق سنقر نصب عينيه هدفاً راح يعمل على تحقيقه، تمثل في إعادة الأمور إلى نصابها ولذلك شرع في:

١ - إقامة الحدود الشرعية وطارد اللصوص وقطاع الطرق وقضى عليهم وتخلص من المتطرفين في الفساد، كما قضى على الفوضى التي كانت متفشية في البلاد، وعامل أهل حلب بالحسنى حتى (توارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر)^(٢).

٢ - كتب إلى عمال الأطراف، لم يكتف آق سنقر بحصر تدابير الإصلاحية في حلب بل كتب إلى عمال الأطراف التي خضعت لحكمه أن يحذوا حذوه، وتابع أعماله بنفسه.

٣ - وأقرّ قسيم الدولة مبدأ المسؤولية الجماعية، فإذا تعرض أحد التجار للسرقة في قرية ما، أو إذا هوجمت قافلة أو نهب، فإن أهل القرية التي جرت الحادثة فيها يكونون مسؤولين جماعياً عن دفع قيمة الضرر اللاحق بهؤلاء^(٣) ونتيجة لهذا المبدأ هبَّ سكان القرى لمساعدة الحكام في فرض الأمن، فإذا وصل تاجر إلى قرية أو مدينة، وضع أمتعته وبضاعته إلى جانبه ونام وهو مطمئن، بحراسة أهلها، وهكذا شارك السكان بتحمل المسؤولية في حفظ الأمن حتى أمنت الطرق، وتحدث التجار والمسافرون بحسن تدابيرهم وسيرته^(٤).

ونتيجة لاستتباب الأمن في كافة أرجاء إمارة حلب نشط التجار، وامتألت الأسواق بالبضائع الواردة إليها من كل الجهات واستقر الوضع الاقتصادي، وتداعى الناس إليها للكسب فيها والعيش برغد^(٥). وقد اعترف المؤرخون بحسن سياسة آق سنقر الداخلية، والأمنية، وأجمعوا على مدحه.

- قال ابن القلانسي: وأحسن فيهم السيرة، وبسط العدل في أهلها، وحمى السابلة للمتريدين فيها، وأقام الهيبة، وأنصف الرعية، وتتبع المفسدين، فأبادهم، وقصد أهل الشر فأبعدهم، وحصل له بذلك من الصيت، وحسن الذكر، وتضاعف الثناء والشكر... فعمرت السابلة للمتريدين من السفار وزاد ارتفاع البلد بالواردين بالبضائع من جميع الجهات

(١) دخول الترك الغز إلى الشام، مصطفى شاكر ص ٣٠٧، ٣١٤ - ٣١٥.

(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٤٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الباهر: ص ١٥.

(٥) مرآة الزمان (٢٤٤/٨).

والأقطار^(١).

- وقال ابن واصل:... ورخصت الأسعار في أيام الأمير قسيم الدولة وأقيمت الحدود الشرعية، وعمرت الطرقات وأمنت السبل، وقتل المفسدون بكل فج، وكان كلما سمع بمفسد أو بقاطع طريق أمر بصلبه على أبواب المدينة^(٢).

- وقال ابن الأثير:.... وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته، وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين رخص عام، وعدل شامل وأمن واسع^(٣).

- وقال عنه ابن كثير:... بأنه كان من أحسن الملوك سيرة، وأجودهم سريرة وكان الرعية في أمن وعدل ورخص^(٤).

وأما من حيث إنجازاته العمرانية، فقد جدّد عمارة منارة حلب بالجامع عام (٤٨٢هـ/١٠٨٩م) واسمه منقوش عليها إلى اليوم وفي ذلك قصة لطيفة ذكرها ابن واصل مفادها: في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة أسس القاضي أبو الحسن بن الخشاب منارة حلب، وكان بحلب بيت معبد نار، قديم العمارة، وصار بعد ذلك أتون حَمَام، فأخذ ابن الخشاب حجارته، وبنى بها المنارة، فأنهى بعض حُسَّاده إلى الأمير قسيم الدولة خبره، فغضب على القاضي ابن الخشاب، وقال: هدمت معبداً هو لي وملكلي فقال: أيها الأمير، هذا معبد للنار، وقد صار أتوناً^(٥)، فأخذت حجارته لأعمر بها معبداً للإسلام، يُذكر فيه الله وحده لا شريك له وكتبت اسمك عليه، وجعلت الثواب لك، فإن رسمت غرمت ثمنه لك، ويكون الثواب لي، فعلت فأعجب الأمير كلامه، واستصوب رأيه وقال: بل الثواب لي، وأفعل ما تريد فشرع في عمارة المنارة في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة^(٦).

ثالثاً: سياسته الخارجية:

عادت سياسة آق سنقر الحازمة بنتائج هامة على المنطقة، فساد الاطمئنان، وأمنت الطرق وانتشر العمران، فانتعشت التجارة، وقد بلغ من سيطرة آق سنقر على الأمن في قرى حلب وضياعها أن أرسل من ينادي فيها أن لا يغلق أحد بابيه، وأن يتركوا آلتهم الزراعية في أماكنها ليلاً ونهاراً^(٧)، ومن ثم جاءت شهرته بناء على ما أنجزه في هذا المجال^(٨) وبعد أن نظم قسيم الدولة إمارته الداخلية، وحقق الأمن والاستقرار أراد أن يقوم بدور خارجي وكانت بلاد الشام، عبر تاريخها، عرضه للنزاعات من أجل السيطرة بين

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٦.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (١٩/١).

(٣) الكامل في التاريخ (٣٦٨/٨).

(٤) البداية والنهاية (١٤٣/١٦).

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٢٠/١).

(٦) المصدر نفسه (٢٠/١).

(٧) عماد الدين زكي ص ٣٥.

(٨) ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩ - ١٢٠ الباهر ص ١٥.

الشمال والجنوب. وقد مثَّلت دمشق، منذ القرن السابع الميلادي الجنوب، في حين مثَّلت حلب الشمال وكانت المفارقات بين الشمال والجنوب في بعض الأحيان اجتماعية واقتصادية ولكن غالباً ما كانت سياسية، حيث حاول حكام دمشق من جهتهم، وحكام حلب أيضاً مدَّ سيطرتهم كلياً على بلاد الشام، وتبعاً لهذه القاعدة حدث صراع بين تُنُش وأق سُنُقُر^(١)، فقد وقف في وجه تُنُش الطامع في بلاده، وأن يتوسع على حساب جيرانه، وبدا له قبل الإقدام على تنفيذ هذا المشروع أن ينشئ جيشاً منظماً يعتمد عليه في حروبه وشرع في ذلك وكانت نواة هذا الجيش تمثَّلت بالقوة التي تركها ملكشاه معه عندما رحل عن حلب وتعدادها أربعة آلاف مقاتل، ثم تعدَّت السنة آلاف^(٢). وقد اعتمد أق سُنُقُر على نوعين من القوات العسكرية.

* النوع الأول: القوات الاحتياطية التي كان يزداد عددها باستمرار، وهي تنتمي إلى العنصر التركي.

* النوع الثاني: القوات الاحتياطية التي كان يجمعها حين يحتاج إليها، وكانت خليطاً من العرب والتركمان وغيرهم، وقد وصل عددها في المعركة التي خاضها ضد تُنُش إلى عشرين ألفاً وكان تُنُش قد جهد منذ أن أصبح حاكماً على دمشق في عام ٤٧٠هـ/١٠٧٧م في العمل على:

* بسط سلطانه على كامل بلاد الشام، وبخاصة المدن الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للدولة الفاطمية، أو تُحكم من قبلها.

* إنشاء دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها بمعزل عن السلاجقة العظام في خراسان، إلا أنه فشل في تحقيق الهدف الأول، ونجح في تحقيق الثاني إنما بعد وفاة ملكشاه الأول على أن الأوضاع التي آلت إليها البلاد لم تُرضِ تُنُش، فلجأ إلى السياسة وطلب من أخيه في عام (٤٨٠هـ/١٠٨٧م) تزويده بقوات ومعدات تمكنه من طرد الفاطميين من بلاد الشام وإخضاعها كلها لسلطان السلاجقة، بما فيها المدن الساحلية، والواقع أن ملكشاه الأول كان يخشى تمدداً فاطمياً باتجاه الأملاك السلجوقية في بلاد الشام والعراق، لذلك لَبَّى طلب أخيه، وأمر كل من قسيم الدولة صاحب حلب، وبوزان صاحب الرها، بأن يقدما له كل ما يحتاجه في مهمته من عساكر وتجهيزات^(٣) ويبدو أن الحاكمين لم ينفذوا الأوامر السلطانية. فلم يذهب أق سنقر بعيداً في مساعدة تُنُش وهو يعلم مدى خطورة أطماعه، وكذلك فعل بوزان. ومن جهته، فإن تُنُش لم يقدّم بأي عمل عسكري جدِّي ضد مدن الساحل^(٤)، ولكن الأوضاع تبدلت في عام (٤٨٢هـ/١٠٨٩م) حين استولى الفاطميون على عكا وصور وصيدا وجبيل، كما أنه وصل إلى المعسكر الفاطمي، في

(١) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢١٥.

(٢) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢١٥.

(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٥١.

(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٥١.

غضون ذلك، خلف بن ملاعب صاحب حمص وأفامية^(١)، فاجتمع بالقائد الفاطمي واعترف له رسمياً بسلطان الفاطميين وسيادتهم عليه^(٢)، مما شكل تهديداً مباشراً لسلطان السلاجقة في بلاد الشام ونتيجة لما اتفق عليه الطرفان من بسط السيادة الفاطمية على كامل بلاد الشام قام خلف بن ملاعب بالاعتداء على أراض تابعة لتنتش مما دفعه إلى الاستنجاد مجدداً بأخيه. كما أن الحكام السلاجقة في هذه البلاد شكوا إلى السلطان اعتداءات أمير حمص، وكذلك فعل السكان بفعل أنه اتصف بالظلم، ونظراً للأوضاع الخطيرة التي باتت عليها بلاد الشام، أمر السلطان أخاه نُتُش بتأديب ابن ملاعب، وطرده الفاطميين من البلاد وضمها إلى الأملاك السلجوقية، وطلب في الوقت نفسه، من ولاته فيها بالتحرك السريع لمساعدته^(٣) انزعج كلُّ من آق سُنُقَرُ وبوزان من قيادة نُتُش لهذه الحملة وأدركا أنه سوف ينفرد بحكم ما سيتولى عليه، فخرجا مكرهين غير مقتنعين بمساعدته^(٤). وصلت القوات المتحالفة إلى حمص عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م وحاصرتها وضيقَّت عليها حتى استسلمت، وقبض على ابن ملاعب، وأرسل إلى السلطان ملكشاه الأول^(٥)، وانكشفت في غضون ذلك أطماع الأطراف المتحالفة، فقد طلب كل من الأمراء حمص لنفسه وكتب إلى السلطان بذلك، فأنعم بها على أخيه^(٦).

١ - موقف آق سنقر من تنتش: في عام ٤٨٤هـ نزل تنتش بجيوشه على طرابلس وكان بها قاضياً وهو صاحبها واسمه جلال الملك بن عمار ونصبوا المجانيق فاحتج عليهم ابن عمار وأظهر لهم منشور السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس، فلم يقبل منه تنتش ذلك وتوقف آق سنقر عن قتاله فقال له تنتش: أنت تتبع لي فكيف تخالفني؟ فقال: أنا تبع لك إلا في عصيان السلطان، فغضب تاج الدولة تنتش ورجع إلى دمشق وآق سنقر إلى حلب^(٧).

وأدرك آق سنقر أن سياسته العدائية تجاه نُتُش تفرض عليه منعه من ضم أي مدينة إلى أملاكه، لذلك جهد أثناء عودته إلى حلب، في ضمِّ المواقع التابعة لخلف ابن ملاعب ومنها أفامية التي سلّمها إلى منقذ صاحب شيزر^(٨)، وقد هدف من ذلك إلى أمور منها:

أ - إقامة منطقة حاجزة بين أملاكه في شمالي الشام، وأملاك تنتش في الجنوب واعتقد أن إمارة بني منقذ في شيزر بإمكانها أن تقوم بهذا الدور.

ب - حرمان نُتُش من ضمِّ إمارة بني منقذ، وبالتالي إبعاده عن منطقة حلب.

(١) أفامية: مدينة حصينة.

(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٥١.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٢.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٢.

(٥) المصدر نفسه ص ٥٢.

(٦) بغية الطالب (٧/٣٣٥٤).

(٧) تاريخ الزنكيين ص ٥٣.

(٨) المصدر نفسه ص ٥٣.

ت - إيجاد حليف قوي يعتمد عليه في صراعه مع تُنُش.

ث - إبعاد بني منقذ عن التحالف مع تُنُش (١).

والواقع أن ملكشاه وقف على هذا الصراع على النفوذ في بلاد الشام فعمد إلى وضع حدٍّ له، فاستدعى في شهر رمضان عام ٤٨٤هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٠٩١م، جميع ولايته في بلاد الشام والجزيرة بالإضافة إلى أخيه تُنُش، لبحث معهم مشاكل وقضايا مناطقهم (٢)، واستغل تُنُش وجوده عند أخيه وعرض خلافه مع آق سُنُقُر، واتهمه بعدم الإخلاص للقضية السلجوقية، وقام آق سنقر يدافع عن نفسه متهماً تُنُش بالكذب واستطاع إقناع السلطان بوجهة نظره، فرفض اتهام أخيه له كما رفض مساعيه للتخلص منه (٣).

٢ - دعم آق سنقر للسلطان بركيارق: ظلت العلاقة الطيبة، قائمة بين آق سُنُقُر وملكشاه، طيلة حياة هذا الأخير ولما توفي عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م طلب تُنُش السلطنة لنفسه في ظل صراع على السلطة بين أولاد السلطان المتوفى، وتجهز للزحف شرقاً لإخضاع البلاد لسلطانه، وكتب كلاً من آق سُنُقُر وبوزان يطلب مساعدهما (٤)، واستجابوا لذلك واشتركوا في حرب إبراهيم بن قريش صاحب الموصل لأنه رفض الخطبة في الموصل لتُنُش، ورفض أن يعطيه طريقاً إلى بغداد فهزم صاحب الموصل وأخذت منه، ساروا إلى ميافارقين فملك تُنُش سائر ديار بكر (٥)، ثم سار تُنُش إلى أذربيجان وكان بركيارق بن ملكشاه قد قوى أمره وصارت بيده الري وهمذان فسار ليمنع عمه (٦)، ولما علم تُنُش بذلك قرر الإسراع في زحفه باتجاه خراسان لمحاربة ابن أخيه، وعندما وصل إلى مدينة تبريز (٧)، حدثت المفاجأة إذ تخلَّى عنه آق سُنُقُر وبوزان وانضما إلى بركيارق عند مدينة الري (٨) فقوى موقفه بهما وكان هذا الانسحاب محطماً لخطة تُنُش ويبدو أن هناك عدة أسباب دفعت آق سُنُقُر إلى هذا التصرف لعل أهمها:

أ - كان تُنُش منافساً خطيراً لآق سُنُقُر، وأن تأييده له حثمه واقع الظروف السياسية التي كان يمر بها.

ب - رأى آق سُنُقُر أن تبقى السلطنة محصورة في أبناء سيده ملكشاه الأول وفاء منه له.

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٥٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣.

(٣) تبريز: أشهر مدن أذربيجان وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٣.

(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٥٣.

(٦) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٤.

(٧) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٥٣.

(٨) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٥٣.

ج - شعر قسيم الدولة بأن تنتش يُقرب ياغي سيان صاحب أنطاكية، ويميل إليه وقد يعتمد عليه في حكم بلاد الشام في المستقبل^(١) ومهما يكن من أمر، فقد أدرك تُنُشُ حرج موقفه، وضعف قواته بعد الانسحابات التي حصلت في صفوفه، فاضطر إلى التوقف عن الزحف وقتال بركيارق، وأثر الانسحاب إلى الشام، فعاد أدراجه نحو ديار بكر، وتوقف في الرحبة، ثم حدث أن أقنع كل من آق سنقر وبوزات السلطان بركيارق بالألا يترك تُنُشُ وشأنه وحدراً من أطماعه، وأشار عليه بمطاردته^(٢) وفعلاً تحرك الجميع باتجاه الرحبة، فلما علم تُنُشُ بذلك تركها واجتاز الفرات قاصداً أنطاكية التي بقي فيها مدة ثم عاد إلى دمشق^(٣)، وفي الرحبة عقد اجتماع رباعي ضم السلطان بركيارق وآق سنقر وبوزان وعلي بن مسلم بن قريش العقيلي، تمخض عن عقد تحالف بين الحاكمين السلجوقيين من جهة والأمير العقيلي من جهة ثانية، تحت إشراف السلطان، هدفه الوقوف في وجه تُنُشُ، وعاد السلطان إلى بغداد، بعد أن ترك قوة عسكرية بتصرف آق سنقر، في حين عاد بوزان إلى الرها، وآق سنقر إلى حلب، فوصل إليها في شهر ذي القعدة عام ٤٨٦ هـ شهر تشرين عام ١٠٩٣ م، وهكذا قام آق سنقر بدور بارز في إفشال مخططات، تنتش ومنعه من الحصول على السلطنة، وساعد بركيارق على الاحتفاظ بها، مدركاً في الوقت نفسه أن صاحب دمشق سوف ينتقم للضربة التي وجهت إليه، فأخذ يستعد للتصدي له وانتزاع دمشق منه هذه المرة، فطلب المساعدة من السلطان بركيارق فأمده بكر بوغا، واستنجد بمن جاوره من الحكام أمثال بوزان حاكم الرها، ويوسف بن أبوق حاكم الرحبة، كما انضم إليه جماعة من بني كلاب وأحداث حلب^(٤).

٣ - مقتل آق سنقر: كان أول ما فكر فيه تُنُشُ عند عودته إلى دمشق هو الانتقام من آق سنقر وبوزان بعد أن تخليا عنه في وقت الشدة^(٥)، فأخذ يستعد لقتالهما، وتحالف مع ياغي سيان صاحب أنطاكية بعد أن زوّج ابنه رضوان من ابنته^(٦) كما جند قوات إضافية من بني كلاب، والتقى الجيشان يوم السبت في التاسع من شهر جمادي الأول / شهر آيار) عند تل السلطان^(٧)، القريب من حلب، ويبدو أن آق سنقر لم يثق بمن كان معه من العرب، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة ثم إلى القلب والراجح أن هذا التبديل في المواقع العسكرية أثر على قدراته القتالية، فدارت الدائرة عليه، ووقع أسيراً في يد تُنُشُ^(٨)، فسأله تنتش: لو

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٥٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٥.

(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٥٥ الكامل في التاريخ (٣٦٨/٨).

(٥) الحركة الصليبية، عاشور (١١٢/١) تاريخ الزنكيين ص ٥٦.

(٦) زبدة حلب (٣٣١/١).

(٧) تل السلطان: موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق.

(٨) الكامل في التاريخ (٣٦٨/٨).

ظفرت بي ما كنت صنعت بي قال: كنت أرى قتلك قال: فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي فقتله صبراً وتسلم قلعة حلب الاثنتين ١١ جماد الأولى (١) ودفن آق سنقر خارج حلب ثم لما ملك عماد الدين نقل بقايا أبيه فدفنها بجانب المدرسة الرجاحية في حلب (٢).
 رابعاً: نشأة عماد الدين زنكي وأسرته:

١ - نشأته: ولد عماد الدين زنكي سنة ٤٧٧هـ وكان أبوه من كبار قادة ملكشاه حتى لقب بقسيم الدولة وكان الابن الوحيد لهذا القائد العظيم في الدولة السلجوقية وتولى والده آق سنقر حلب سنة ٤٧٩هـ أي بعد سنتين من مولده، فكانت حلب مهد طفولته وقضى بها أيامه الأولى (٣).

٢ - تربية والده له: عاش زنكي في كنف والده مدة عشر سنوات تكونت خلالها الخطوط العريضة لشخصيته وتشرب من أبيه أخلاقه وصفاته، ولا شك أن والده دربه على الفروسية منذ نعومة أظفاره، ليكون نعم الوارث لمركزه وقد دربه على ركوب الخيل ورمي السهام، وعوده على الصبر من المشاق في الحرب وممارستها، وقد أثبتت الأحداث اللاحقة حسن تربية والده له، فقد تميز بالشجاعة التي تبلغ حد الذروة فهو يهاجم مع مودود طبرية وينهزم الصليبيون، ويلحقهم المسلمون وعماد الدين في المقدمة، ولا يتأفت إلى الوراء، ليتأكد من لحاق أصحابه به، ويصل إلى باب طبرية ويحارب الإفرنج عليه ويبيدي شجاعة فائقة وينسحب ويحسن الانسحاب عندما لا يرى حوله أحداً، فيعجب الناس من رجوعه سالماً، كما عجبوا من شجاعته (٤)، وورث عن أبيه آق سنقر القوة التي تعرف العطف والتي لا تبقى على عدو خطر، وورث عنه التخطيط الذي يؤدي إلى حتف الخصم الذي رسمه له زنكي (٥).

٣ - والدته: توفي والده وعمره عشر سنوات ولكن أمه عاشت حتى رأت ابنها يرث أباه ويحكم الموصل وقرت عينها إذ رآته في السنة التي توفيت فيها يحاصر دمشق التي قتل صاحبها تنش زوجها آق سنقر فقد توفيت ٥٢٩هـ بالموصل وكانت هناك أسطورة أوروبية سورية أن أتابك الموصل من أصل فرنجي ويفترض أن أمه كانت الأميرة الجميلة النمساوية التي أسرت وقضت بقية أيامها في حريم آقسنقر وإن امرأة عظيمة أوروبية تستطيع أن تلد مثل هذا البطل. لكن هذه القصة غير صحيحة لأن أباه آقسنقر مات قبل سنوات من حدوث الكارثة الغزو الصليبي ولا يذكر لنا المؤرخون اسماً لوالدته ولا أصلها حتى نستطيع أن نتعرف على أسباب اكتسابه اللون الأسمر مع أن

(١) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥.

(٣) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٧.

(٤) الروضتين (٦٨/١).

(٥) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٨.

المشهور عن الأتراك اللون الأبيض فلعله ورث هذه الصفات عن والدته (١).

٤ - زوجات عماد الدين:

أ - تزوج زنكي أكثر من واحدة فمن زوجاته اللاتي ذكرهن المؤرخون زوجة الأمير كندغدي. وقال السلطان محمود: قد زوجتك امرأة الأمير كندغدي من أكابر أمراء السلطان محمد، والسلطان محمود، واتفق أنه مات وترك ولداً صغيراً وزوجة ومن المال والبرك (المتاع الخاص من ثياب وقماش وسلاح) ما لا يقدر عليه إلا السلطان فطلب من عماد الدين أن يتزوجها وأرسل إليها، يقول لها: إنني زوجتك بعماد الدين زنكي فامتعت ثم أجابت، فركب زنكي من غد دخوله بها ومعه ولد كندغدي وهو في موكب عظيم من أصحابه وأصحاب كندغدي وأخرجت له زوجته من الخيام والبرك ما ليس لأحد من العسكر مثله (٢).

ب - الزوجة الثانية: خاتون ابنة الملك رضوان، كان زواجه بها زواجاً سياسياً، فقد تزوجها ليصبح له الحق والشرعية في حكم حلب (٣)، ولكنه هجرها بعد أن رأى ثياب أبيه أفسنقر الذي قتله جدها تتش وطلقها بتدخل القاضي أبي غانم قاضي حلب (٤)، وكان زواجه بها سنة ٥٢٢ هـ على رأي حسن حبشي وسنة ٥٢٣ هـ في رأي ابن العديم (٥).

ج - الزوجة الثالثة: صاحبة خلاط ابنة سقمان القطبي، تزوج صاحبة خلاط ابنة سقمان القطبي سنة ٥٢٩ هـ والظاهر أن زواجه منها كان ليتمكن نفوذه في تلك المنطقة، فقد كان زنكي في السنة السابقة لهذا الزواج في حرب وكان حسام الدين تمرتاش معه في حربه ضد داود بن سقمان بن أرتق وربما أراد بالمصاهرة أن يضم خلاط إليه وتقوية جبهته في تلك المنطقة، ولا سيما أنه في سنة زواجه كان في حرب في تلك الجهة فاستولى على الصقر وشوش.

د - الزوجة الرابعة: ابنة تمرتاش.

هـ - الزوجة الخامسة: خاتون بنت جناح الدولة حسين، وكان زواجه منها سنة ٥٣١ هـ وفي هذه السنة كانت فترة نشاطه في حمص، فقد حاصرها حصاراً شديداً ولا يستبعد أن يكون زواجه بها ليكتسب شرعية أخذه حمص من دمشق، لأنها الوارثة لها بعد والدها وليضم إليه أنصار والدها ويساعده على أخذ المدينة (٦).

(١) المصدر نفسه ص ٥٩.

(٢) التاريخ الباهر ص ٢٨.

(٣) نور الدين زنكي، حسن حبشي ص ٢٤.

(٤) زبدة حلب ص ٢٤٤ الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٩.

(٥) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٩.

(٦) المصدر نفسه ص ٦٠.

و - الزوجة السادسة: تزوجها سنة ٥٣٢ هـ وهي صفوة الملك ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك إسماعيل وإخوته بني تاج الملوك وهي أخت الملك دقاق لأمه (١)، وقد كان زواجه منها في أمل أن يمتلك دمشق فلما لم يحصل له ملك دمشق أعرض عنها (٢)، ونلاحظ أن موضوع زوجات زنكي قد حظي باهتمام عدد من المؤرخين وأغلب الظن أن سبب ذلك يعود إلى العلاقة الوثيقة بين معظم عقود الزواج التي قام بها وبين مشاريعه السياسية والعسكرية وكان زنكي يعتمد رابطة الزواج لتحقيق بعض أهدافه السياسية والعسكرية، وأنه تمكن بهذا الأسلوب من توثيق علاقاته بعدد من الحكام والأمراء، الأمر الذي ساعده إلى حد كبير في تنفيذ خطته الرامية إلى توحيد القوى الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي (٣).

٥ - أبناؤه فهم: سيف الدين غازي وهو الأكبر، نور الدين محمود، قطب الدين مودود، نصرة الدين أمير أفيران. وجميع أولاده ظهرت عليهم النجابة مما ورثوه من والدهم وكانوا ذوي أخلاق حميدة، وشجاعة فائقة، وخاصة نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وقطب الدين مودود فأخبار شجاعتهم مشهورة، ونلاحظ من أسماء أولاد زنكي اسم مودود فقد يدل على إعجاب زنكي بالأمير مودود وهناك غازي واسمه يدل عليه أما محمود فإنه يطابق اسم أحد السلاطين السلاجقة ممن خدمه زنكي (٤). وقد خصص زنكي لتربية أولاده عليا بن منصور السروجي، وكان أديباً شاعراً خطاطاً وعندما كبر سيف الدين غازي أرسله أبوه لخدمة السلطان مسعود فتلقاه بالحفاوة والتقدير، ورتب في خدمته عشرة من الحراس (٥) وقد بقي سيف الدين هناك حتى قبيل مقتل أبيه بوقت قصير وأما نور الدين محمود فقد نشأ تحت رعاية والده، وتعلم القرآن الكريم والفروسية والرمي (٦)، ولما جاوز صباه لزم خدمة أبيه حتى مقتله (٧)، وهكذا كان زنكي يعد أولاده لتحمل المسؤوليات الإدارية والعسكرية في المستقبل، وما يقال عن غازي ومحمود يمكن أن يقال عن ابنيه الآخرين أميران ومودود (٨).

* * *

(١) الروضتين (٨٠/١).

(٢) مفرج الكروب نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٦٠.

(٣) عماد الدين زنكي ص ١٧٢.

(٤) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٦٢.

(٥) الباهر ص ٩٧.

(٦) البداية والنهاية نقلاً عن عماد الدين ص ١٧٣.

(٧) الروضتين (١١٩/١).

(٨) عماد الدين زنكي ص ١٧٣.